مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 3 السّنة: الثّلاثيّ الثّالث 2021 ص 461- 478

لغةُ الجسد في شِعر المكفوفين
بشار بن برد مثالا

Le langage corporel dans la poésie des aveugles:
Bashar ibn Bard comme exemple.

أ. د. يوسف ولد النّبيّة*

تاريخ الاستلام: 20- 11- 2018/تاريخ القبــول: 26- 04- 2020

التعريف الرقمي للمقال: 10.33705/0114-023-003-023 2021 DOI

الملخّص: تناولنا في هذه الورقة البحثيّة لغة الجسد في شعر المكفوفين، متّخذين شعر بشار بن برد مثالا. وقد ارتكزت هذه الورقة على ثلاثة عناصر رئيسة؛ تحدّثنا في العنصر الأوّل عن مفهوم لغة الجسد ومصادر إدراكها لدى المكفوفين. وتطرّقنا في العنصر الثّاني إلى الحديث عن لغة الجسد في شعر المكفوفين. وتناولنا في العنصر الثّالث لغة الجسد في شعر بشار بن برد، التي شملت لغة الأعين، وحركات الأيدي والهيئات والأوضاع الجسديّة، واللّمس، والشّمّ. ثم ختمنا هذه الورقة بأهم النّتائج المتوصّل إليها.

الكلمات المفتاحيّة: لغة الجسد؛ السّلوك الحركي؛ التّواصل غير اللفظي؛ شعر المكفوفين؛ بشار بن برد.

* ج. معسكر-الجزائر، البريد الإلكتروني: youcefouldennebia@yahoo.fr (المؤلّف المرسل).

Résumé: Dans cet article, nous avons tenté de mettre en exergue le langage corporel dans la poésie des aveugles, en adoptant la poésie de Bashar ibn Bard comme exemple. Ce document était basé sur trois éléments principaux. Le premier présente la définition du concept de langage corporel, et les sources de perception aveugle du visuel. Le deuxième élément est consacré au langage corporel dans la poésie des aveugles. Quant au troisième élément, nous avons discuté sur le langage corporel dans la poésie de Bachar ibn Bard, qui comprenait le langage des yeux, les mouvements de la main, les conditions corporelles, le toucher, et l'odorat. Nous avons, en dernier lieu cité les résultats obtenus.

Mots clés: Le langage corporel; la gestuelle; la communication nom verbal; la poésie des aveugles; Bashar ibn Bard.

تمهيد: كثيرا ما يتوسّل الإنسان الإشارات الجسديّة للتعبير والتّواصل مع الغير. فهي من جهة سلوك حركي يصاحب اللغة المنطوقة في غالب الأحوال، إن لم نقل في جميعها لإتمامها أو توضيحها أو توكيدها، ومن جهة أخرى ينفصل هذا السّلوك الحركي عن اللغة المنطوقة في أحوال يكون هو الأنجع فيها والأنفع؛ كما هو الأمر عند عمال الموانئ والمطارات، وشرطة المرور، وأهل التّمثيل الصّامت، وما إلى ذلك، ومن جهة ثالثة يعدّ هذا السّلوك الوسيلة الأوحد في التّواصل الحاصل بين الصّمّ البكم. الأمر الذي يجعل الإشارات الجسديّة تكتسي صفة "اللّغة" من باب التّجوّز على الأقل.

ومن الطّريف أنّ الإشارات الجسديّة أو لغة الجسد لا تقتصر على المبصرين فحسب، وإنّما تتعدّاهم إلى المكفوفين أيضا. ويُعدّ بشار بن برد (ت167هـ) أحد أهمّ الشّعراء المكفوفين الذين جسّدوا لغة الجسد في أشعارهم، وتواصلوا بها تواصل المبصرين؛ فقد وظّف في شعره خطاب الأعين، وحركات الأيدي، وهيئات الجسد

المختلفة، وغير ذلك ممّا يندرج تحت التّواصل الجسدي بخاصّة، والتّواصل غير اللفظي بعامّة. وعلى هذا الأساس، جاز لنا أن نطرح السّؤال الآتي: هل أجاد الشّعراء المكفوفون التّعبير والتّواصل بلغة الجسد، مثلما أجاد في ذلك الشّعراء المبصرون؟

من هنا، تحاول هذه الورقة البحثيّة الإجابة على هذا السّؤال، وذلك بتسليط الضّوء على ظاهرة استخدام المكفوفين للغة الجسد في أشعارهم، متّخذين بشار بن برد نموذجا عن أولئك الشّعراء. وقد ارتكزت هذه الورقة على ثلاثة عناصر رئيسة؛ تحدثنا في العنصر الأوّل عن مفهوم لغة الجسد ومصادر إدراكها لدى المكفوفين. وتطرّقنا في العنصر الثّاني إلى الحديث عن لغة الجسد في شعر المكفوفين. وتناولنا في العنصر الثّالث لغة الجسد في شعر بشار بن برد. ومن أجل استبانة اللغة الجسديّة في شعر المكفوفين، اعتمدنا على مقاربة وصفيّة تحليليّة. ثم ختمنا هذه الورقة بأهم النّتائج المتوصّل إليها.

1- لغة الجسد ومصادر إدراكها لدى المكفوفين:

أ- مفهوم لغة الجسد: تعدّ لغة الجسد مظهرا من مظاهر الاتصال غير اللفظي الذي يتمّ بين النّاس وتُعرّف على أنّها "تعبير أو فعل أو وضع جسمي اصطلحت عليه الجماعة اللغويّة يصاحب الكلام أو لا يصاحبه ويدل على معنى يقصده المتكلّم ويدركه المستمع".[1] وبعبارة أخرى فلغة الجسد هي نسقٌ من التّعبيرات والحركات والهيئات والتّموضعات الجسديّة الدّالة على معنى، تواضعت عليها جماعة لغويّة ما مقترنة بالكلام أو منفصلة عنه. ويتبيّن من هذا أنّ لغة الجسد تضمّ تعبيرات الوجه والعين وحركات أعضاء الجسد، والهيئات والأوضاع الجسديّة، والاتجاه. ويتصل بلغة الجسد ما يُسمّى بالمتمّمات المساندة أو "الإكسسوارات"، كالنّظارة والهاتف والعصا.[2]

ولايخفى ما للغة الجسد من وظائف خطابيّة تقوم بتحقيقها في السّياق التّواصلي وهي وظائف لا تقلّ شأنا عن تلك التي تحققها اللغة اللفظيّة؛ حيث إنّ لغة الجسد تمّم معنى اللفظ أو توضّحه أو تؤكّده أو تنوب عن اللفظ أحيانا، بل إنّ لغة الجسد كثيرا ما تُكسب اللفظ دلالات سياقيّة بشكل أو بآخر (مثلا: لتعبيرات الوجه أثرٌ واضح على دلالة التّحيّة التي نُلقيها؛ فرحا أو غضبا أو حزنا..)، الأمر الذي يجعل لغة الجسد تُسهم -إلى جانب الألفاظ- في تشكيل الخطاب.

وقد كان قدماؤنا العرب على وعي كبير بلغة الجسد ودورها في البيان والتّواصل وفي الوصف والتّعبير، منهم الجاحظ الذي اصطلح على لغة الجسد بالإشارة حينما قال: "الإشارةُ واللّفظُ شريكان، ونِعم العبدُ هي له، ونِعم التّرجمانُ هي عنه. وما أكثرَ ماتنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخط".[3] وابن جني الذي تناول لغة الجسد في معرض حديثه عن أهميّة "مشاهدة الأحوال" والوجوه في استبانة المعنى وتعزيز التّواصل، من ذلك قوله: "أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما في النّفوس. وعلى ذلك قالوا: "رُبَّ إشارة أبلغُ من عبارة"... وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أُحسنُ أنّ أحدّث إنساناً في الظّلمة".[4] وغير هذه النّماذج في التّراث العربي كثير.[5]

ب- مصادر إدراكها لدى المكفوفين: من البديهي أنّ الأعمى يدرك العالم الخارجي ويتواصل معه من خلال حواسه الأربع (السّمع، واللمس، والشّم، والذّوق) عدا حاسة البصر. وكثيرا ما تكون حاسة السّمع لدى المكفوف في مقدّمة تلك الحواس التي يدرك من خلالها العالم الخارجي ويتواصل معه؛ إذ يستعيض المكفوف عن حاسة البصر بحاسة السّمع في استحضار المُدرَكات البصريّة، وتمثّلها في ذهنه وخياله. ومن ثمّة يتأتى للشاعر المكفوف رسم الصّور البصريّة وتجسيدها في صور فنيّة بأسلوبه الخاص.

وعلى هذا الأساس، فقد كانت الأذن ملهمة لكثير من شعراء العربيّة المكفوفين قديما وحديثا، فإذا كانت العين رسول القلب عند المبصرين، فإنّ الأذن رسول القلب عند المكفوفين، وقد أكد بشار بن برد هذا المعنى في شعره، بل جعل الأذن تتقدّم العين في التّواصل أحيانا، وذلك حينما قال:

يـــا قـــومِ أُذْني لـــبعضِ الـــحيِّ عاشـــقةٌ والأُذْنُ تعشـــقُ قبـــلَ العـــينِ أحيانـــا
قـــالوا بمـــن لا تَـــرَى تَهـــذي فقلـــتُ لهـــمْ الأذْنُ كـــالعينِ تُـــوفي القلـــبَ مـــا كانـــا[6]

وكما تمدّ حاسةُ السّمع المكفوفَ عامّةً بالمُدرَكات البصريّة، فإنّها تمدّ الشّاعر المكفوف خاصّة، بالصّور الفنيّة، والتّعابير اللغويّة، التي أبدعها متقدّموه. ذلك لأنّ السّمع كما قال ابن خلدون "أبو المَلَكات اللّسانيّة"،[7] وفي تحصيل المَلَكة اللسانيّة -عبر حاسة السّمع- يتساوى المبصرون وغير المبصرين على السّواء. فـ "الأعمى يبصر الوقائع

ويصف أحداثها وصف النّاظر بأمّ عينه. ولكن الملاحظ في أوصافه وحديث عيونه وإشارة جفونه أنّه يعتمد فيها على المسموع والمرويّ، وسائر الحواس الأخرى من دون العين".[8]

ولقد أثبتت التّجارب والدّراسات أنّ حاسة السّمع تتقوّى عند المكفوفين عندما يحيط بهم من الظّروف الدّاخليّة والخارجيّة ما يُعينهم على التّعويض عن حاسة البصر. وفي هذا الصّدد، يقول "أدلر" عن ظاهرة التّعويض عن القصور الجسمي: "إنّ الشّعور بالقصور الذي يوحي به إلى الفرد أحد أعضاء بدنه يصير على الدّوام عاملا فعالا في نموه النّفسي". فالتّعويض قد يدفع الضّرير إلى النّبوغ في الشّعر مثل بشار وأبي العلاء، أو الأصمّ إلى الإبداع في الموسيقى مثل "بتهوفن"، أو الألكَن إلى الامتياز في الخَطابة مثل "ديموستين" الإغريقي.[9]

وبالرّغم من الاعتقاد الشّائع بفكرة تعويض الحواس؛ التي بمقتضاها يؤدّي فَقْد البصر إلى زيادة حدّة الحواس الأخرى، فقد أثبت البحث العلمي والمقارنة أنّه لا يوجد فارق بين الأعمى والمبصر من حيث درجة الحدّة في حواسهم، إلاّ أنّ الأعمى ربّما يستغلّ حواسه بطريقة أفضل وأوقع؛ لأنّ فقد البصر يستدعي تسخيرا وتدريبا أكبر للحواس الأخرى. وينطبق هذا المبدإ على حاسة السّمع؛ حيث إنّ معاهد العميان تعطي عناية كبيرة للحاسة السّمعيّة بحيث تجعلها تدقّ وترهف بدرجة يسهّل فيها على الأعمى أن ينمّيها، فيصل إلى درجة الاتقان كأي عازف ماهر"[10].

وإذا تصفحّنا متون التّراث، واحتكمنا إلى واقع الحال، وجدنا أنّ المكفوفين يمتازون بقوّة الذّاكرة، وجودة الحافظة، وحدّة الذّكاء، ومثال ذلك قول الفيروزابادي (ت817هـ) عن ابن سيّدة (ت458هـ): "وكفاه أنّه أملى (المُحْكَم) و(المُخَصَّص) من صدره".[11] وقد علّل الجاحظ قوّة الحافظة عند المكفوفين بقوله: "العُميانُ أحفظ وأذكى، وأذهانهم أقوى وأصفى، لأنّهم غيرُ مشتغلي الأفكار بتمييز الأشخاص، ومع النّظر تشعّب الفكر ومع إطباق العين اجتماع اللبّ".[12]

2- لغة الجسد في شعر المكفوفين: لقد حفل تاريخ الشّعر العربي -قديمه وحديثه- بشعراء مكفوفين أجادوا في أغراض الشّعر بعامّة، كما أجادوا في الوصف والتّصوير بخاصّة، كبشار بن برد (ت167هـ)، وأبي العلاء المعرّي (ت449هـ) والحُصْري

القيرواني (ت488هـ)، وأبي جعفر التّطيلي الأندلسي (525هـ) وعبدالله البَرْدوني (ت1420هـ/1999م) وغيرهم.

وقبل ذكر نماذج عن لغة الجسد في شعر المكفوفين، نشير إلى أنّ هؤلاء الشّعراء لم يروا في العمى مَنقصة لهم، وإنّما كانوا -كما ذكر الجاحظ- يفخرون بعماهم كما يفخر غيرهم من البُرْصان والعُرْجان والحُولان، من ذلك قول بشار حاكيا عن نفسه:

إذا وُلِـــدَ المولـــودُ أعـــمى وجدتَـــه وجـــدِّك، أهـــدى مـــن بصـــيرٍ وأحْـــوَلا
عَمِيـــتُ جنينـــاً والـــذّكاءُ مِـــنَ العَـــمَى فجئـــتُ عجيـــبَ الظّـــنِّ للعلـــمِ مَعْقِـــلا
وغـــاضَ ضـــياءُ العَـــينِ للعلـــمِ رافـــداً لقلـــبٍ إذا مـــا ضـــيَّع النّـــاسُ حصَّـــلا
وشِـــعْرٍ كنَـــوْرِ الـــرّوضِ لائمـــتُ بينَـــه بِقـــولٍ إذا أحـــزَنَ الشّـــعرُ أسْـــهَلا[13]

ولم يكن العمى عائقا عن استعمال الشّعراء المكفوفين للغة الجسد في الوصف والتّصوير، وفي التّعبير والتّواصل، وإنّما قدّموا من خلال هذه اللّغة لوحات بيانيّة، لا تقلّ روعة وجمالا عمّا قدّمه قرناؤهم المبصرون، وقد أثبت بشار هذا المعنى لمن تعجّب من أوصاف المكفوف ونعوته بأنّ فعله شبيه بعمل التّاجر، الذي يَمِيزُ الدّرر بالحس والفكر، كما يميزها بالنّظر، قال:

عَجبـــتْ فطمـــةُ مِـــنْ نَعـــتي لهـــا هـــل يجيـــدُ النّعـــتَ مكفـــوفُ البَصَـــرْ
دُرّةٌ بحريّـــــــــة مكنونـــــــــةٌ مازَهـــا التّـــاجرُ مـــن بـــين الـــدّرَرْ
أذْرَتِ الـــــدّمعَ وقالـــــتّ ويلـــــتي مِـــنْ ولـــوعِ الكـــفِّ ركّـــابِ الخَطَـــرْ[14]

ومن النّماذج الشّعريّة التي يمكن سوقها عن لغة الجسد في شعر المكفوفين وصف أبي العلاء المعرّي لمشهد في فلاة، تنظر فيه الوحشُ إليه مُنكِرة؛ كأنّها لم تر إنسيا من قبل والطّير تعجب له كيف لا يطير لشدّة سرعته:

أقـــولُ، والـــوحشُ تـــرميني بأعينِهـــا والطّـــيرُ تعجـــبُ مـــنّي كيـــفَ لـــم أَطِـــرِ![15]

وفي عصرنا هذا، صوّر البردوني في قصيدة "ليالي الجائعين" بيوت الجائعين وهي تتطلّع بنظرها إلى أمل ينتشلها ممّا هي فيه، كما يتطلّع الغريق إلى مُغيث بعيد ينتشله ممّا هو فيه أيضا، وقد عبّر عن هذا السّلوكَ البصري الفعلُ "يَرْنُو":

تَرْنُـــو إلى الأمـــلِ المـــولّي مثلمـــا يَرْنُـــو الغريـــقُ إلى المُغيـــثِ النّـــائي[16]

وفي القصيدة ذاتها، يعرض لنا الشّاعر مشهدا شبّه فيه حال بيوت الجائعين الآيلة للسقوط بشيخ محمَّل بالأثقال، وقد جسّد الشّاعر هذا المشهد من خلال هيئة جسديّة دلّ عليها الفعل "ينوءُ"؛ أي: مَن ينهَضَ بِالشّيء مُثْقَلاً، حتى يكاد ذلك الشّيء يُميله أو يُسقطه:

وتملْمَلَـــتْ تحـــت الظّـــلامِ كأنّهـــا شـــيخٌ يَنـــوءُ بأثقـــلِ الأعبـــاءِ[17]

وفي مقام آخر، صوّر البردوني في قصيدة "سائل" مشهدا لشيخٍ حافلا بلغة الجسد؛ حيث ضمّ هذا المشهد اللّون (أصفرِ العقلِ واليدِ)، والحركة (يدبّ)، والهيئة الجسديّة (ثقيلِ الخطى يمشي الهُوينَى)، وملامح الوجه (أحزانه)، والسّلوك البصري (رمى... نظرةَ الأسى)، لتدلّ هذه اللغة الجسديّة على مدى إحساس الشّاعر بهذا الشّيخ السّائل:

مَـــررتُ بشـــيخٍ أصـــفرِ العقـــلِ واليـــدِ يـــدبُّ علـــى ظهـــرِ الطّريـــقِ ويَجتـــدي
ثقيـــلِ الخُطـــى يمـــشي الهُـــوينَى بِجُوعِـــهِ وأحزانِـــه مشـــيَ الضّـــريرِ المقيَّـــد

***

رمى الشّـــيخُ فيمـــا حولـــه نظـــرةَ الأسى ومَـــرَّ كطيـــفِ المُســـتكينِ المُهـــدَّدِ[18]

ومن الشّعراء المعاصرين أيضا، نجد الشّاعر محمّد لوسرة في قصيدة "ذيول الأمريكان"، يصوّر الهوان الذي حلّ بمن وصفهم بذيول الأمريكان، من خلال هيئة الامتطاء، وهي هيئة حركيّة استعارها الشّاعر للتعبير عن معنى الذّلّ والهوان:

عِشـــتمُوا مثـــلَ الأتـــانْ يـــا ذيـــولَ الأمريكـــانْ
امتطـــاكُم أهـــلُ شـــرٍّ فتجرّعنـــا الهـــوانْ[19]

وبهذا، يبدو أنّ الشّعراء المكفوفين قد أجادوا توظيف لغة الجسد في رسم الصّور الشّعريّة، وقد خلُص أحد الباحثين إلى أنّ ما أتى به الشّعراء العميان من صور بطريقة تعتمد على الحس البصري، هي في أغلبها صور تقليديّة، ولكنّهم استطاعوا أيضا أن يُظهروا تفوّقهم في كثير من هذه الصّور على المبصرين في إبداع الصّورة البصريّة التي يمكن تصنيفها في عداد التّجديد المتميّز في شعر العميان.[20]

3- لغة الجسد في شعر بشار بن برد: لقد زخر شعر بشار بلغة الجسد؛ كلغة الأعين، وحركات الأيدي، وأوضاع الجسد وهيئاته، واللّمس، والشّمّ وما إلى ذلك، وقد اتخذ الشّاعر هذه "اللغة" وسيلة من وسائل التّواصل غير اللفظي. ونحسب هذا الشّاعر خير من أجاد التّصوير بالسّلوك الحركي في شعره، حتى يُخيَّل للمتلقي أنّه أمام شاعر مبصر، لا أمام شاعر كفيف. هذا فضلا عن كونه من الشّعراء الذين احتجّ علماء العربيّة بكلامهم في النّحو والصّرف واللّغة والبلاغة. وسنكتفي في هذه العجالة بأهم أضرب لغة الجسد في شعر بشار.

أ- لغة الأعين: تعدّ العين من النّاحيّة التّواصليّة رسول القلب ومرآته، فما كان في القلب ظهر في العين. وهي بذلك تمدّ المتلقي بدلالات قد تكون -في بعض الأحيان- مُجزِئة عن اللّسان. لذلك يعمد المتكلّم إلى اتخاذها وسيلة من وسائل البيان غير اللساني للتعبير عن الأغراض والمعاني.

وإذا تأمّلنا شعر بشار -من منظور التّعبير الجسدي- وجدنا للغة الأعين الحظّ الأوفر فيه، فقد كان كثيرا ما يستعمل خطاب التّراسل بالطّرف بينه وبين من يحبّ تجنّبا لنظرات الواشين، الذين يتربّصون بالمتحابّين الدّوائر، ويترصّدونهم في كل مكان. من أجل ذلك كان الشّاعر يلجأ، على طريقة عامّة الشّعراء، إلى إكساب الطّرف صفة الكلام التي هي من خصائص اللسان، قال:

يكلِّمُهـــــا طـــــرفي فتُـــــومي بطَرفهـــــا
فيُخـــبِرُعمّـــا في الضّـــميرِمـــن الوَجْـــدِ
فـــإنْ نَظَـــر الواشـــون صـــدّتْ وأعرَضـــتْ
وإن غَفِلـــوا قالـــتّ السّـــتَ علـــى العَهْـــدِ[21]

ففي هذين البيتين ذكر الشّاعر عناصرَ غيرَ لفظيّة دارت بينه وبين مخاطَبه في حضرة الواشين؛ كالإيماء بالطّرف إرسالا واستقبالا، وحركات الصّدّ والإعراض.. قصدَ صرفهم عن فحوى الخطاب الدّائر بينه وبين من يخاطِب.

وفي هذه المواقف وأمثالها، يصمت السّلوك اللفظي لينطق السّلوك الحركي نطقا غير فاضح، مُبينا ببيان واضح. وفي هذه الحال "غدا على العاشق استفزاز طاقات الجسد في التّواصل، وابتداع الوسائل للتراسل، والجنوح في ذلك كلّه إلى التّعميّة والكتمان خوفا من الرّقباء والعيون، ومحاولة التّجافي عن الولوج في مزالق الحرج الاجتماعي، وتجاوز العادات والأعراف التي هي محتكّم رئيس في تعيين ما هو مُتقبَّل حسن، أو مُستقبح مرذول".[22]

على أنّه ينبغي الإشارة في هذا المقام، إلى أنّ القرآن الكريم هو خير ما يُحتكَم إليه في توجيه السّلوك البصري في البيئة العربيّة الإسلاميّة؛ فقد أمر بخفض طرْف العين عمّا يحرم، عند كلا الجنسين، وِقاءً من الفتنة، وكلّ ما يوقع في الفحشاء.[23] فـ"البصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طرق الحواس إليه وبحسب ذلك كثُر السّقوط من جهته ووجب التّحذيرُ منه".[24]

ومِن بعد بشار، تحدّث ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) عن ظاهرة التّراسل بالعيون في باب "الإشارة بالعين" في كتابه طوق الحمامة.[25] وفي الكتاب ذاته عقد للرّقيب بابا تحدّث فيه عن آفاته قائلا: "ومن آفات الحُبّ الرّقيب، وإنّه لحمّى باطنة وبرسام ملحّ وفكر مكبّ... وأمّا إذا لم يكن في الرّقيب حيلة ولا وُجِد إلى تَرَضِّيه سبيلٌ فلا طمع إلاّ بالإشارة بالعين همسا وبالحاجب أحيانا والتّعريض اللطيف بالقول وفي ذلك متعةٌ وبلاغ إلى حين يقنعُ به المشتاقُ. وفي ذلك أقول شعرا أوّله:(من الطّويل).

على سيّدي مِنِّي رقيبٌ محافظٌ وَفِيَّ لِمَنْ والاهُ ليس بِنَاكِثِ
ويقطعُ أسبابَ اللُّبانَةِ في الهوى ويفعلُ فيها فعلَ بعضِ الحوارثِ[26]

وفي مقام آخر، وصف بشار جفونه بأنّها تجود بوابل من الغيث، عندما تستثيره ابتسامة من يُحب، حتى يُخيَّل لنا أنّه رآى تلك الابتسامة رأي العين، وذلك حينما قال:

إذا ابتسمتْ جادتْ جفوني بوابلٍ من الغيثِ أجرَته بروقُ المباسمِ[27]

وفي موقف مغاير لما تقدّم، تحدّث بشار عمّن ينظر إليه شَزْرا، والنّظر بهذا الشّكل سلوك بصري يكون أكثر ما يكون في حال الغضب والنّظر إلى الأعداء، قال الثّعالبي: "فإن أعاره لحْظَ العداوة قيل: نظر إليه شزرا".[28] وقد ورد هذا الوصف في قول بشار:

وقـــــومٌ ينظـــــرون إليّ شَـــــزْرا كـــــأنّ كُلُـــــومَهم مـــــنّي دَوامِ
ســـــيُجدي حِلمُهـــــم أو يَنْكـــــروني فـــــإنَّ تَقَـــــدُّمي قبـــــل انتقـــــامي[29]

ب- حركات الأيدي: يتوسّل المتكلّم -في أحايين كثيرة- حركات أعضاء جسده كالكفّ والحاجب والرّأس والكتف للتواصل مع الغير. كما تأخذ تلك الأعضاء أيضا وظيفة جماليّة للتعبير عن بعض المعاني المجرّدة. وقد وجدنا بشارا يستعمل حركات الأيدي استعمالا مجازيا، وذلك عندما كنّى عن البخيل بمغلول اليدين في قوله:

ومـــا النّـــاسُ إلا صـــاحباك فمـــنهمُ سَـــخيٌّ ومغلـــولُ اليـــدين مـــن البُخـــلِ
فســـامحْ يـــدا مـــا أمكنتْـــكَ فإنّهـــا تُقِـــلُّ وتُـــثْرِي والعـــواذلُ في شُـــغلِ[30]

ولا يخفى على القارئ أنّ وصف البخيل بمغلول اليدين تعبير قرآني بليغ جارٍ على السّنة الشّعراء والخطباء، مقتبس من قوله تعالى: "وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (المائدة/64)، فقد صورت الآية نموذجا بشريا؛ من شدّة بخله يُخيَّل إلينا أنّ يده قد شُدّت إلى عنقه!

ج- الهيئات والأوضاع الجسديّة: نقصد بالهيئة الجسديّة الحالة التي يكون عليها الجسد في المحسوس أو المعقول (المتصوَّر في الذّهن، كهيئة خفض الجناح الواردة في قوله تعالى: "واخفضْ لهما جناحَ الذّلِّ من الرّحمة" (الإسراء:24) التي تُحمل على الخضوع وحُسن الخلق). وتشمل الهيئة الجسديّة مختلف الأوضاع الجسديّة التي يتّخذها الإنسان في حالات الثّبات كالقيام والقعود، وفي حالات الحركة كالمشي والجري.

ولم تغب الهيئات والأوضاع الجسديّة عن وصف بشار لها، وإضفائه عليها بعض الأوصاف والتّشبيهات، كتشبيهه قوام امرأة -في تثنّيها- بالخَيْزُران، وإن كان بمُكنة الشّاعر إدراك هيئة المشبَّه (المرأة) والمشبَّه به (الخيزران) بحاسة اللّمس، إلى جانب ما تمدّه به حاسة السّمع من صور وأوصاف لهما، قال:

وحـــوراءِ المـــدامعِ مـــن مَعَـــدٍّ كـــأنّ حـــديثَها قِطَـــعُ الجُمَـــانِ

إذا قامـــتْ لسُـــبْحَتِها تثنّـــتْ كـــأنّ عظامَهـــا مـــن خَـــيْزُرَانِ[31]

د- اللّمس: تعدّ حاسة اللّمس من أكثر القنوات الاتصاليّة تعبيرا عن التّفاعل بين المتواصلين، كالمصافحة، والعناق، والضّرب على الكتف، حيث يتمّ عن طريق هذه الحاسة إرسال رسائل غير لفظيّة واستقبالها. كما أنّ حاسة اللمس "تطلعنا على ما لا تستطيع العين إطلاعنا عليه كالنّعومة والرّخاوة والملاسة، فالأصابع تداعب الشّعر وتحس به، فالشّاعر بهذه الصّورة مثلا يوقظ فينا انفعالا قوياً مؤثّراً لا يقلّ عن الانفعال النّاتج عن الصّورة البصريّة أو السّمعيّة، فحاسة اللمس تصبح وسيلة إحساس وشعور ونقل".[32]

وإذا كان بشار قد توسّل الاشارات الجسميّة -البصريّة- للتواصل مع الغير، من خلال ما أمدّته به قناته السّمعيّة، فإنّه اعتمد اللمس وسيلةً للتعرّف على الغير أيضا باعتباره رافدا من روافد المعرفة الحسّيّة، فضلا عن كونه وسيلة من وسائل التّواصل غير اللفظي. فقد قال يمدح خالدّ بن برمك:

لمســـتُ بكفـــي كفَّـــه أبتغـــي الغِـــنَى

ولـــم أدرِأنّ الجـــودَ مـــن كفّـــه يُعـــدي

وقال لامرأة اسمها أُمامة:

أُمامـــةُ قـــد وُصِـــفْتِ لنـــا بحُســـنٍ وإنّـــا لا نـــراكِ فألمســـينا[33]

ففاقد البصر -كما رأينا- يعتمد على اللمس في التّواصل مع عناصر مجتمعه واختبار ما حوله. وقد ينفذ إلى أمور دقيقة عن طريق الحس بدل النّظر؛ ليؤكّد ما تناهى إلى سمعه عن طريق الوصف.[34] فتكون القناة اللّمسيّة -عندئذ- معززة للقناة البصريّة.

ويمكن تصوّر القيمة التّواصليّة الهائلة للّمس بتصوّر حالة "هيلين كيلر" (HelenKeller) التي تغلّبت على صممها وفقد بصرها باستخدام حاسة اللمس. فقد استطاعت أن تتعلّم أسماء الأشياء عن طريق ضغط الألفبائيّة اليدويّة على راحة يدها.

كما استطاعت أن تتعلّم الكلام عن طريق وضع أصابعها على حنجرة أستاذتها لتحسّ ذبذبات صوتها. وتعلّمت القراءة والكتابة عن طريق البرايل (braille).[35]

فلو مُكِّن شعراؤنا المكفوفون القدامى بما مُكِّنت به هذه المرأة وغيرها من وسائل اتصاليّة حديثة، مدعِّمة لحاسة اللمس بخاصّة، لاتسعت عندهم دائرة المعرفة أكثر ولعانق خيالُهم ما هو أكبر، ولأتوا في إبداعاتهم على الجملة بالشّيء العجيب.

هـ- الشّمّ: ما من شكّ في أنّ الشّمّ لغة جسديّة بامتياز، باعتمادها على الرّائحة التي تحمل رسائل غير لفظيّة مختلفة. كما أنّ الرّائحة تؤثّر سلبا أو إيجابا على المجال الجسدي الذي يكون بين المتواصلين، سواء من حيث ضيقُه أم اتساعُه؛ فإذا كانت الرّائحة طيّبة اقترب الشّخصان من بعضهما بعضا، وإن كانت دون ذلك اتسع المجال بينهما.

وفي هذا السّياق، ذكر المهتمون بلغة الجسد أنّ التّواصل الشّمّي يرتبط بالتّعرف على الرّوائح الطّيبة والخبيثة، وتعتبر علامات دالة على الاستحسان والاستهجان ومن هذا القبيل ارتباط رائحة البخور بأماكن العبادة، وأنواع العطور الخاصّة بالرّجال والنّساء.[36]

ولم يخل شعر المكفوفين من التّواصل الشّمّي، حيث يُتّخذ وسيلة للتّعرف على الغير،[37] من ذلك قول بشار بن برد على لسان امرأة تطلب منه أن يقلّل من الطّيب لفوح رائحته، وانتشارها في كل مكان؛ لأنّ الطّيب -في نظرهم- مدعاة للوشاية شأنه في ذلك شأن اللسان:

لـــم أنـــسَ مـــا قالـــتّ وأترابُهـــا ... في معْـــرَكٍ يـــنْظِمن مِسْـــباحَا:
أقلِـــلْ مِـــن الطّيـــبِ إذا زُرْتنـــا ... إنِّي أخـــافُ المســـكَ إنْ فاحـــا
لَـــمْ أدْرِ أنّ المســـكَ واشٍ بِنـــا ... إنّ حـــارَ بـــابَ الـــدّارِ مِسْـــباحَا[38]

بيْد أنّ بشارا قد استعمل، في مقام آخر، الشّمّ في سياق مجازي، حينما قرَن الرّيحان بطيب فعال ممدوحه الإمام المهدي، راسما بذلك صورة بيانيّة جميلة:

تشـــمُّ مـــع الرّيحـــانِ طيبًـــا فَعَالَـــه ... ذكـــاءً ونرجـــوه عِياضًـــا مـــن القَطْـــرِ[39]

خاتمة: ما خلُصنا إليه في نهاية المطاف، أنّ الشّعراء المكفوفين قد أجادوا توظيف لغة الجسد في الوصف والتّصوير، وفي التّعبير والتّواصل، معتمدين في وصفها، وفي التّواصل بها على ما أمدّتهم به حواسهم الأربع. وما حديثُنا عن بشار بن برد إلاّ شاهدُ عدل على ذلك؛ فقد أثرى معجمَه الشّعري بالألفاظ الدّالة على اللغة الجسديّة، كلغة الأعين وحركات الأيدي والهيئات والأوضاع الجسديّة، واللّمس والشّمّ، وما إلى ذلك، ممّا ينضوي تحت التّواصل الجسدي بخاصّة، والتّواصل غير اللفظي بعامّةً.

ولا يظنّنّ ظانّ بأنّ البحث في لغة الجسد في شعر المكفوفين يمكن أن ينتهي بالانتهاء من هذه الصّفحات، وإنّما فيه مُتَّسَع لمن أراد أن يستزيد ويفيد. وعليه؛ فإنّه من المقترحات التي يمكن تقديمها في هذا الشّأن:

– إنشاء "معجم لغة الجسد" بلسان العربيّة، وإثراؤه من خلال ما قدّمه الشّعراء المكفوفون للغة الجسد في أشعارهم؛

– استشفاف الدّلالات النّفسية والاجتماعيّة والثّقافيّة للغة الجسد لدى الشّعراء المكفوفين؛

– عقد موازنة بين الشّعراء المكفوفين وقرنائهم المبصرين، في توظيف لغة الجسد في رسم الصّور الشّعريّة.

المصادر والمراجع:

1- ابن جني: الخصائص، تح: محمّد علي النّجار، الهيئة العامة لقصور الثّقافة، 2006م

2- ابن حزم: طوق الحمامة، دار الكتب، بيروت، 1424هـ، 2003م

3- ابن خلدون: المقدمة، تح: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م

4- ابن عطيّة: المُحرّر الوَجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي دار الكتب، ط1، 1422هـ/2001م

5- أبو العلاء المعري: سقط الزّند، شرح أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت 1971م

6- أبو منصور الثّعالبي: فقه اللغة وسر العربيّة، دار الكتاب، بيروت، ط1 1427هـ/2006م

7- أبو منصور اللثعالبي: اللطائف والظّرائف، واليواقيت في بعض المواقيت، تحقيق ناصر محمّدي محمّد جاد، دار الكتب والوثائق الرّقميّة، القاهرة، 1430هـ/2009م

8- أحمد مختار عمر: أنا واللغة والمَجمع، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1422هـ/2002م

9- الجاحظ: البيان والتّبيين، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت (ب ت)

10- الجاحظ: كتاب البُرْصان والعُرْجان والعميان والحُولان، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1410هـ/1990م

11- الفيروزابادي: البُلغة في تراجم أئمة النّحو واللغة، تحقيق: محمّد المصري، دار سعد الدّين للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، 1420هـ/2000م

12- بشار بن برد: الدّيوان، شرح وتكميل: الطّاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1373هـ/1954م

13- كريم زكي حسام الدّين: الإشارات الجسميّة، دار غريب القاهرة، ط2، 2001م

14- كريم زكي حسام الدّين: التّحليل الدّلالي، إجراءاته ومناهجه، دار غريب، القاهرة 2000م

15- محمّد كشاش: اللغة والحواس، رؤيّة في التّواصل والتّعبير بالعلامات غير اللسانيّة المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م

16- محمّد كشاش: لغة العيون، المكتبة العصريّة ن بيروت، ط1، 1419هـ، 1999م

17- محمّد لوسرة: مِن عطايا الرّحمن، ديوان شعر، مكتبة الرّشاد، سيدي بلعباس، ط1 1434هـ/2013م

18- مختار حمزة: سيكولوجيّة ذوي العاهات، مؤسسة التّأهيل المهني، القاهرة، (ب ت)

19- مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، دراسة في لغة الجسد، دار العلوم، بيروت 2007م

20- نادر مصاورة: شعر العميان، الواقع، الخيال، المعاني والصّور الفنيّة، حتى القرن الثّاني عشر الميلادي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2008م

الهوامش:

[1] كريم زكي حسام الدّين: الإشارات الجسميّة، دار غريب القاهرة، ط2، 2001، ص121

[2] قدّمنا في هذا الصّدد رسالة دكتوراه عنوانها: دلالةُ الحركات الجسديّة في الخطاب القرآني بإشراف: أ.د سليمان عشراتي، بقسم اللغة العربيّة وآدابها، بجامعة وهران، في السّنة الدّراسيّة: 2010-2011م/1431-1432هـ

[3] البيان والتّبيين، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، (ب ت)، 1/78

[4] الخصائص، تح: محمّد علي النّجار، الهيئة العامة لقصور الثّقافة، 2006م، 1/246 247

[5] للتوسّع في الموضوع يُنظر مبحث "الحركة الجسديّة في الدّراسات العربيّة" من رسالتّنا (مخطوط): دلالةُ الحركات الجسديّة في الخطاب القرآني

[6] ديوان بشار بن برد، شرح وتكميل: الطّاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة 1373هـ/1954م، 4/206-207

[7] المقدّمة، تح: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988، ص339

[8] محمّد كشاش: لغة العيون، المكتبة العصريّة ن بيروت، ط1، 1419هـ، 1999م، ص98

[9] مختار حمزة: سيكولوجيّة ذوي العاهات، مؤسسة التّأهيل المهني، القاهرة، (ب ت) ص55 56

[10] م.ن، ص125 وما بعدها

[11] الفيروزابادي: البلغة في تراجم أئمة النّحو واللغة، تحقيق: محمّد المصري، دار سعد الدّين للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، 1420هـ/2000م، ص76

[12] يُنظر: أبو منصور الثّعالبي: اللطائف والظّرائف، واليواقيت في بعض المواقيت، تحقيق ناصر محمّدي محمّد جاد، دار الكتب والوثائق الرّقميّة، القاهرة، 1430هـ/2009م ص386

[13] الجاحظ: كتاب البُرْصان والعُرْجان والعميان والحُولان، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت ط1، 1410هـ/1990م، ص48

[14] الدّيوان: 4/68-69

[15] أبو العلاء المعري: سقط الزّند، شرح أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت 1971م، ص38

[16] ديوان عبد الله البردوني، المجلد1، الهيئة العامّة للكتاب، صنعاء، ط1 1423هـ/2002م ص89

[17] م،ن، ص90

[18] م،ن، ص96

[19] من عطايا الرّحمن، ديوان شعر، مكتبة الرّشاد، سيدي بلعباس، ط1، 1434هـ/2013م ص25

[20] نادر مصاورة: شعر العميان، الواقع، الخيال، المعاني والصّور الفنيّة، حتى القرن الثّاني عشر الميلادي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص426

[21] الدّيوان: 2/234

[22] مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، دار العلوم، بيروت، 2007، ص311،310

[23] ورد هذا الأمر في قوله تعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ" (النّور:30،31).

[24] ابن عطيّة: المُحرّر الوَجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي دار الكتب، ط1 1422 هـ/2001، 4/177

[25] ابن حزم: طوق الحمامة، دار الكتب، بيروت، 1424هـ، 2003م، ص32 وما بعدها.

[26] ابن حزم: طوق الحمامة، ص50-51

[27] الدّيوان: 4/192

[28] أبو منصور الثّعالبي:فقه اللغة وسر العربيّة، دار الكتاب، بيروت، ط1 1427هـ/2006م

[29] الدّيوان 4/187، قال المحقق في الهامش: أي: إن لم ينفع فيهم حِلمي يجدوا مني ما يكرهون، والتّقدم الإمهال والإنذار..

[30] الدّيوان: 4/142

[31] م،ن: 4/198

[32] نادر مصاورة: شعر العميان، الواقع، الخيال، المعاني والصّور الفنيّة، حتى القرن الثّاني عشر الميلادي ص251

[33] م،ن: 4/206

[34] محمّد كشاش: اللغة والحواس، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م ص82

[35] أحمد مختار عمر: أنا واللغة والمَجمع، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1422هـ/2002م ص131،130

[36] كريم زكي حسام الدّين: التّحليل الدّلالي، إجراءاته ومناهجه، دار غريب، القاهرة 2000م ص50

[37] من الطّرائف التي يمكن سوقها في اتخاذ الأعمى التّواصل الشّمّي وسيلة للتّعرف على الغير ما قالتّه الدّكتورة "هيلين كيلر" إذ مرّت بمصر عام 1953م: "إني أعرف بمجرد الشّمّ المنزل الذي أدخله، ولقد أمكن أن أتعرف على منزل ريفي قديم الطّراز عن طريق ما تركه السّكان الذين توالى سكنهم فيه، من روائح الأشياء والعطور والأقمشة، وكان يمكن أعرف نوع العمل الذي يقوم به بعض الأشخاص من الرّوائح العالقة بهم مثل روائح الخشب أو الحديد أو البُويّة (مادة زيتيّة يُطلَى بها الخشَب والحوائط) أو العقاقير الطّبية أو الخضراوات..." مختار حمزة: سيكولوجيّة ذوي العاهات، ص126

[38] الدّيوان: 2/152

[39] م،ن: 3/282